الرواية التاريخية في رحلة ابن فضلان إلى بلاد الشمال

د.علي فرحان زوير
المديرية العامة لتربية بابل

ألمقدمة:احمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد: صاحب الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة* ، المعروفة ب (رسالة ابن فضلان . مبتورة الاخر .كان من موالي محمد بن سليمان الحنفي (القائد ، فاتح مصر) ثم اصبح من موالي المقتدر العباسي .(1)
واوفده المقتدر الى ملك الصقالبة (على اطراف نهر الفولغا) مع جمع من القادة والجند والتراجمة ، اجابة لطلب بلغار الفولغا وقد بعثوا برسول منهم الى عاصمة الخلافة يرجون العون على مقاومة ضغط الخزر عليهم من الجنوب ، وان ينفذ اليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الاسلام وكانوا قد اعتنقوه قبل عهد غير بعيد .

وقامت
البعثة من بغداد (في 11 صفر هـ ، 21يونيو 921م (مارة بهمذان والري ونيسابور ومرو وبخاري ، ثم مع نهر جيحون الى خوارزم الى بلغار الفولغا في 18 محرم 310 هـ (12مايو 922م) ولم يعرف خط سير الرجعة لضياع القسم الاخير من الرسالة(2) .
وابن فضلان كان في مقدمة البعثه ، فهو مرشد ديني فيها، ولكن بسبب كونه مدوّن تلك الرحلة ظهر كأنه الشخص الأول فيها ،وغطى على ملامح الآخرين في الرحلة ،وهم من نخبه البلاط السياسي آنذاك ممن تتردد أسماؤهم في المصادر طوال خلافة المقتدر وهم أصحابه وممن أسهم في تثبيت بيعته وحامى عنه :نذير الحرمي ، سوسن الفارسي ،بارس الصقلابي ،تكين التركي ، ومعهم سفير الصقالبة في بغداد عبد الله باشتو الخزرجى ، الذي سرعان ما انتزع دوراً سياسياً في البعثة (3).

كانت هذه الرحلة ملائمة ليعيد ابن فضلان الاعتبار لنفسه، في مايتوارى الآخرون خلف حضوره الكثيف ولا يعرف بعد ذلك شيئاً عنهم ، إما البعثة التي كان مقرراً لها إن تصل فقط إلى دار الصلح تبعثرت حينما شرع مرشدها الديني . ابن فضلان . إلى اختراق دار الكفر التي هي استمرار دار حرب، مما أجبرته على الصعود شمالا إلى ما وراء بلاد الصقالبة(4).

*هم سكان نهر الفولغا

منطلق الرحلة:

لم يهتم ابن فضلان بالتحذير الذي أطلقه الجغرافيون العرب القدامى من إن أهل الإسلام غير معنيين بدار الكفر وقد عبّر عن هذا التحذير بوضوح المقدسي في كتابه(أحسن التقاسيم في معرفه الأقاليم)، اذاكد إن الاتصال مع الأخر . المختلف عقائدياً _محضوراً لأنه ثمرة محرمه وفق العرف الشائع زمن ابن فضلان . وهي مركزه ومنهل المرجعية الاسلامية التي انطلق منها ابن فضلان ليفقه أهل دار العهد في الدين ويعرفهم بشرائع الإسلام (5).

يحرص ابن فضلان في بداية رحلته على تدوين ذاكراً المدن والانهار والمسافات التي يقطعها ، ويتعرض لأحوال الناس ، فكان للكتابة دورا مهما في تثبيت رؤاه وتصوراته وإحكامه. لكنه بمجرد وصوله إلى دار الكفر توقفت الكتابة ليضيع علينا التصور الحقيقي للأخر ، إما ماوصل جمعه وترجمته عن مصادر بلغات لاتينية والمانية وفرنسية ودنماركية وسويدية وانجليزية وغيرها ،وهي التي اعطتنا صورة عن وجهة نظرابن فضلان الذي فقد لغته وعقيدته ، اذ ذاب في التضاريس الغريبة لعالم الشمال . ولم يشر ياقوت الحموي الى تفصيلات هذه الرحلة بعد ان اخذ عنها الشيء الكثير،وشكك في المرويات الخاصه بالصقالبة ، واعلن براءته منها ،وعدم ضمان صحتها (6).

واذا صحت تلك المرويات التي وصلت الينا من اللغات الاخرى ،واخذت بنظر الاعتبار فرادة المغامرة ومداها الواسع واحداثها ، واثرها في شخصية ابن فضلان، يصبح من اللائق ان لاتعرض كامله على العموم لانها تعطي صوره مشوهة عن الاخر.

ماتعرض له نص الرحله :

ان المتن الرئيس من رحلة ابن فضلان يفتح الباب واسعاًأمام اسئلة كثيرة تتصل بالحدود الصارمة التي تنظم العلاقه بالاخر، وطبيعي اننا والاخر نحرص على تكوين صوراً سوية لانفسنا في ذهن الاخر. واذا كان القدماء قد عمدوا الى اتلاف الجانب المهم من رحلة ابن فضلان ، بهدف محو صوره الاخر ، فانهم بذلك العمل قد فتحوا منافذ التخيّل منذ وقت طويل لاعادة وصل الاجزاء المفقودة من الرحلة ، وتراكم من جراء ذلك تراث ضخم ، منح ابن فضلان دوراً استثنائياً ورائداً لكل مايتصل بعلاقة العالم الاسلامي بالبلاد الشمالية الوثنية في القرن العاشر الميلادي، جعلت منه متنوع الثقافةوالدراية، لكن الشك يبقى يدورحول المدن التي بلغها ابن فضلان ،ويبدو مصير كتابة

حول الاخر معلقاً في مكان ما من هذا العالم ، فالاخر كالشراب السام الذي طالما جرى التحذير منه. وفي ضوء تلك الفكرة جرى تقسيم العالم القديم (7).

ان الضرر الذي لحق بالنص لحق نصوصاً اخرى كثيره في عصره ، وهنالك غموض يلف ظروف تدوين تلك الرحلةومصائر ابطالها الرئيسين بمافيهم ابن فضلان، وان ضياع النص الاصلي المتعلق بالاخرافقدنا تكوين صوره عن تلك الشعوب الشمالية . ولا يعرف سبب فقدان هذا الجزء هل بسبب التوتر الثقافي والعقائدي . هل اقتطع هذا الجزء قصداً، فاذا صح ذلك فانما يكون بعد قرون من زمن الرحله .(8). ويبقى الشاهد الوحيد على وجود النص هو ياقوت الحموي وغيره (625.575هـ). والرحلة قد بدأت في الحادي عشر من صفر عام 309هـ الموافق للحادي والعشرين من حزيران سنه921ميلادية . يقول ياقوت الحموي ((وقصة ابن فضلان وانفاذ المقتدر له الى بلغارمدونة معروفة مشهورةبأيدي الناس،رأيت منها عدة نسخ))(9) ومع ان النص الذي وصل الينا لايصور سوى رحلة الذهاب ، فأن ياقوت الحموي يؤكد ان الرسالة تصور خروجه من بغداد الى بلاد الصقالبة وعودته الى بغداد (10). ويلاحظ ان ياقوت الحموي يصف النص بأنه (قصة) .وإنها شائعة بين الناس وقد رأها ، وهي تصورذهاب ابن فضلان وائيابه ، وان وظيفته فيها تعليم الصقالبة الصلوات والشرائع . ويقوم ياقوت بدمج مقاطع من هذا النص في معجمه، باعتباره من المصادرالجغرافية والبشرية عن تلك البلاد، لكنه لايضمن صحتها ويشكك في بعضها ، ويعلن براءته منها . ومع ان الجغرافيين القدامى كانوا يدرجون غرائب كثيره واوهام في مدوناتهم الاانا نجد ياقوت الحموي يحذر من الاعتماد على ماورد في قصه ابن فضلان من اخبار ومغامرات وتقاليد يصعب تصورها(11).

ولم يكن ياقوت الحموي هوالشاهدالوحيد على اكتمال نص هذه الرحلة، فهناك ابن النديم . ايضاً. الذي يقول انه رآهُ ((بتمامه دفعات ، وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث))(12). لكن ما رأه ابن النديم قد فقد ان ياقوت وابن النديم يقفان الموقف نفسة.ويصدران حكما سلبياً بحق الرسالة مما يكون دليل على ان بعض الكتب في ثقافتنا القديمة تظهر اول ظهورها لكنها سرعان ماتتعرض لسوء فهم يؤدي بها الى الضياع . (13) يقول (كريكتون*) الذي اعاد تركيب الاصول المفقودة لرسالة ابن فضلان _ ربما على سبيل التخيّل _ بالانجليزية اعتمادا على مقاطع تم العثور عليها بلغات كثيرة((يمثل مخطوط ابن فضلان اقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكنغ* ومجتمعهم ، ويعتبر وثيقة بارزة في وصف لحوادث وقعت منذ ما ينيف عن الف سنة ، بتفصيل مميز مفعم بالحياة ، (14) ومن الطبيعي الا ينجو

المخطـوط مـن عاديـات الـزمن ، خـلال الحقبـة الطويلـة التـي مـرت عليـه ، وفـي الحقيقـة ، للمخطوط تاريخه الذاتي ، الذي لايقل تميزا عن النص نفسه)).(15) فيما يتصـل برسالة ابن فضـلان فـأن هذا النص تمزق بعد عصرياقوت، بـل يـاقوت الحمـوي نفسـه قـد اسـهم فـي ذلـك عندما انتزع منة شذرات واجزاء . وهذا موضـوع قـداستأثر باهتمـام المختصـين من اجل تتبـع مصـيرة ولـم شتاتـه ، وتركيـب اجزائـه (16) . لكـن المهـم هـو التأكـد مـن ان الـنص الـذي كـان موحدا في بداية القرن السابع الهجري _ بداية القرن الثالث عشر الميلادي _ وقد تفرق الان في لغات كثيرة جداً منها اللاتينية والالمانية والفرنسية والدنمـاركية والسويدية والانجليزيـة ، وان الجزء العربـي المنشور لايشكل سوى اقل من ربـع الـنص المتداول فـي اللغـات الاخرى . (17)

والملاحظ ان ما جاء في اللغات الاخرى ، وغاب عن العربية هوالقسم الخاص برحلة ابن فـضلان الـى (بـلاد الكفر) ، والاصـل العربـي ينتهـي فـي بـلاد الصقالبـة التـي كانـت آنـذاك ضمـن (دار الصلـح) ولا يتعرض لشـئ اخـر . وبعبارة اخرى فـان كـل مايتصـل بالاخـر قـد وصل الينا بلغات الاخر بعد ان فقد من لغتنا ، ومـا زلنـا فـي حالـة مـن التوتر لأجل معرفة الأخر . (18)

محطات الرحلة :

بين دار المسلمين ودار الكفر

ينطلـق ابـن فضـلان فـي سلسـلة متعاقبـة مـن البـلدان المتمـايزة دينيـاوعرقيا وثقافيـا وهـي : العـالم العربـي ، الايرانـي الـذي نسـميه حـديثا بـلاد فـارس ، التركـي ، الصقالـبي، الخـزري ، الاسكندنافي _ مـع خـلاف فـي الترتيب بـين العالمين الاخـرين_ لكـن علـى العمـوم فـأن علاقتـه بهـذه العـوالم تنـتظم فـي ثـلاث فضـاءات، عقائديـة ، فضـاء مـؤمن (العربـي والفارسـي) وفضـاء نصـف مـؤمن ونصـف وثـني (التركـي ، الصقالـبي ، الخـزري) وفضـاء كامـل الوثـنية(الاسكندنافي) . (19)

*مستشرق انكليزي

* موجات بشرية خارجة من النروج والدنمارك

وبذلك فأن مسار ابن فضلان سيأخذه من المعلوم الى المجهول ومن المألوف الى الغريب (الاخر) ليصـطدم بصـخرة الوثنيـة المطلقـة ،فيرتـد عائـدا الـى نقطـة الانطـلاق . لكـن عودتـة لاتمثل ذهابه ، اذ اصبح ابن فضلان اقل تشددا ، اقل حذرا ، ولايعرف هناك الا بوصفه عربيا

لانه مبعوث الخليفة الى عالم مايزال بعيدا في القرن العاشر الميلادي عن ملامسة الحقيقة الالهية . اذ ان النصر النهائي لاوربا الغربية تم بعدذلك ، وتأخر كثيرا قبل ان يتغلغل في الاقاصي الشمالية النائية (20).

من المؤكد ان ابن فضلان بوصفه مبعوثا لخليفة المسلمين ، يعتقد انه يحمل الحقيقة المطلقة النهائية ، التوحيد الكامل والفكرة الاكثرسموا . وهي كذلك لمن يؤمن بها . لكنها كلما اتجهت شمالا كلما بدت خشنة وهشة وكثيفة ومعقدة. وما بين هذين الدارين دار الاسلام ، ودار الشرك هناك دار الصلح . التي تشغله امة غير مسلمة لكنها مرتبطة بعلاقات وفقا لعقود مع الاسلام ، وفي ضوئها خضعت لسيطرة المسلمين ، وقامت بدفع الجزية ، لكنها تحافظ على شكلها الخاص بالحكم . (21).

لكن ينبغي معرفة مقدار الخطر الذي يحيط بابن فضلان في دار الكفر والحرب لان الاتصال بهم ممنوع ومحرم بينما يسمح للاخر زيارة دار الاسلام من خلال تصريح (امان) يمكن ان يمنحه أي رجل مسلم بالغ وحر .وهذا الامان لايمنح للمسلمين .(22)

وبذلك فقد ابن فضلان وسائل الاتصال وفقد الامان ، فلا اتصال بأهله او بدياره ولا التقاء ثقافيا مع الاخر ، فلغته معطلة هناك . ولا لسان له هناك ولاسيما ان مسلمي العصور الوسطى كانوا يرون ان تعلم لغة اجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة(23).

لان الحقيقة القرآنية عربية اللسان ، ولم يستطع ابن فضلان ان يجيد _ بصورة كافية _ لغة الاقوام الشمالية ، فيأتي دور المقاتل (هرجر) ليكون مترجما ومرافقا ، وتكون اللاتينية هي الوسيط في ذلك العالم ، ولايقتصر دور (هرجر) على الترجمة بل يتعدى الى الشرح والتفسيروالتأويل فضلا عن الرفقة (24)

واذا كان لاسم (ابن فضلان) معنى مشتق من الفضل ، فلا قيمة له في تلك الديار الشمالية ، انه كرقم مكمل لارقام اخرى او فضلة ، او غير ذلك .

بلاد فارس:

ايران عالم متنوع ومترامي الاطراف ، لكن الغريب ان ابن فضلانيمرّ به دون ان يبدي اية تطلعات،ولايستوقفه شئ الى ان يصل بخاربوهذا مايتضح جلياً في قوله ((رحلنا من مدينه السلام يوم الخميس لاحدعشرة ليلة خلت من صفر سنه تسع وثلاثمائة ، فأقمنا بالنهروان يوماًواحداً، ورحلنا مجدين حتى وافينا الدسكرة ، فاقمنا فيها ثلاثه أيام، ثم

رحلنا قاصدين لانلوي على شئ حتى صرنا الى حلوان ، فاقمنا بهايومين)) (25). فلاتجد ابن فضلان في قوله هذا يبدي رأياً اويقف علىشئ بتفصيل،بل يمر سريعا في قوله، كانه يدرك ان ايران عالم مستكشف سابقا من معاصريه ، فلا ضرورة للاعادة ، سوى انه يذكر اسماء المدن التي يمر بها على التعاقب حتى يصل بخارى في وسط اسيا .ويبدوا العالم الايراني خاملا في وصف ابن فضلان لايثير فيه أي فضول (26).

ان تفسير ذلك يعود الى الغطاء العقائدي السميك الذي يضم تحته الاختلافات الثقافية والعرقية بين العالمين العربي والايراني . (27).

وايران عالم اخر يختلف عن العالم العربي يصفه (لومبار)((بانه عالم مختلف عن العالم العربي يسكنه خلق اخرون يتحدثون لغة اخرى، ويعيشون في اطار حضارة تختلف تماما عن الحضارة الاسلامية السائدة في العالم العربي .)) (28).

بخارى:

اقام ابن فضلان في بخارى ثمانيه وعشرين يوماً ، لايبقى في ذكرمرافقيه شئ ، لكن فيها تظهر اولى علامات عدم الانسجام والخلاف ،فئة تريد مواصله التقدم الى خوارزم قبل حلول الشتاء ، وفئه ترغب المكوث وقضاء الوقت في بخارى . وبينما كانت البعثه متجهة نحو الشرق تنعطف فجأة الى الشمال حيث خوارزم . (29).

خوارزم:

هي بوابه الدخول الى العالم التركي والعالم الخزري والعالم الصقالبي . وأمير خوارزم (محمد بن عراق) لايأذن لهم بالدخول الى بلاد الترك خوفا عليهم اذ يقول ((لايحلّ اليّ تركتكم تغررون بدمائكم)) وبالنسبه لامير خوارزم فان العالم الصقالبي هو بلد الكفاروالوصول اليه ينبغي اختراق العالم التركي .اخيراً يفلح ابن فضلان في اقناع الامير في خوارزم فتغادر البعثة الى الجرجانية.(30)

الجرجانيه:

تحت وطأة الثلج تضطر البعثه للبقاء في الجرجانية طوال الشتاء ،يحس فيها ابن فضلان انه وصل الى عالم مختلف عقائديا عنه ، يلجأمعه الى الإحكام السريعة الجاهزة التي تظهر تأثير هذه البيئة ، من ذلك انه يصف أهل الجرجانية أنهم ((أوحش الناس كلاماً وطبعاً ، كلامهم أشبه شئ بصياح الزرازير ، وبها قرية على بعد يوم يقال لها اردكو ، أهلها يقال لهم الكردلية ، كلامهم أشبه شئ بنقيق الضفادع)) (31).

ويظهر من خلال هذا القول البغض والكراهية للاخر ربما سبب ذلك هو الاختلاف العقائدي المتأصل في النفوس . أهل الجرجانية في نظر ابن فضلان مجتمع راكد ، صدمته الطبيعة بمتغيراتها ، فنهر جيحون الهادر المخيف يتحول الى طريق سمكه سبعه عشر شبراً، والقوافل بدل ان تخترق الجبال والغابات تتخذه طريقا لها طوال فصل الشتاء ، وقد أشار الى ذلك . فيما بعد . ابن بطوطة بان هذا النهر يتجمد لخمسة أشهر، وربمايتغلغل الناس في نهاية وقت البرد ، فيذوب الثلج تحتهم فيهلكون .(32)

إما النار . رمز العقاب الإلهي الصارم في الآخرة والعلامة المخيفة عند المسلم . فتصبح في هذه الديار رمزا للكرم والعطاء تدعى إليها الأصدقاء فهي مرغوب فيها .(33)

إما اول كلمة أعجمية في قاموس ابن فضلان فهي (بكند) وتعني الخبز ، ومن الواضح انه لم يدرك وهم الهوية والتطابق المزعوم الاّ في الجرجانية. تركت الطبيعة في ذاكرته بصمات لاتمحى ، فيخرج من الحمام لتجمد لحيته في الحال لتتحول الى قطعة من الثلج . ينام في البيت وهو ملتف بلبود تركية وفرو واكسيه من شدة البرد.

والارض تتشقق الى اودية عظام ، والشجرة العظيمه تنفلق الى نصفين ،وراكب الجمل لايستطيع الحراك لكثرة الثياب التي يرتديها . (34)

ولامبالغة في هذا الوصف فابن بطوطة وصف هذه الاحوال بقوله ((كنت البس ثلاث فروات ، وسروالين ، احدهما مبطن ، وفي رجلي خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان من الرغالي ، وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب (35) ، وكنت اتوضأ بالماء الحار بمقربه من النار ، فماتقطر من الماء قطرة الاجمدت لحينها . واذا غسلت وجهي بالماء يجمد عليها ، فاحركها فيسقط منه شبه ثلج . والماء الذي ينزل من الانف

يجمد على الشارب ، وكنت لا استطيع الركوب لكثرة ماعليّ من ثياب حتى يركبني اصحابي .))(36).

هذه الصورة من الطبيعة اوضحت بجلاء لابن فضلان مقدارالاختلاف بين العوالم المختلفة، ليصل بعد ذلك الى جبل عظيم ، حيث الحد الفاصل بين ثقافتين وطبيعتين ، ليصل الى العالم التركي .

العالم التركي :

في بلاد الترك يجد ابن فضلان نفسه في عالم غير متوقع ، يفوقتصوراته ، ويبدأ لديه النسيان اذ يقول ((لقينا من الضر والجهد والبرد الشديد وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف ، ونسينا كل مامر بنا ، واشرفنا على تلف الانفس)) (37).

وعنده ان هذا البرد هو عقاب الهي لهم لعدم توحيدهم الله ، وكذلك تفسيره لكل شئ قاسٍ عليهم . وهذا ليس تفسيراً منطقياً لانه متأثر برؤية عقائدية ، تجسدت في لهجته الانتقادية العالية بأزاء الاخر.(38)

اولى القبائل التي يصل اليها يجدها من البدو ويصفهم بأنهم ((كالحمير الضاله لايدينون لله بدين ولايرجعون الى عقل ، ولا يعبدون شيئاً ، بل يسمون كبراءهم اربابـاً ، فاذا استشار احدهم رئيسه في شئ قال له : يارب أيش اعمل في كذا وكذا))(39)

ولذلك فهم في شقاء ان اهل العالم التركي مهجنون عقائدياً ينقسمون على انفسهم، مزدوجون في انتماءاتهم وهوياتهم ، يظهرون في عين ابن فضلان مجموعة منافقة ضمن عالم متقلب الولاءات ، (40) ويقول الاتراك ((لا اله الا الله محمد رسول الله)) تقربا الى المسلمين الذين يجتازون عالمهم ، لااعتقادا بوحدانية الله ، او تاكيدا لنبوة محمد (ص) ،انهم لاغراض دنيوية يتمتعون بالفاظ متناثرة ، من ذلك تشكيلهم عبارة (بيرتنكري) التي تعني الله الواحد . ابن فضلان يجد نفسه في هذه الديار في مهمه اصلاحية ، يريد فيها ترميم عالم ممزق.وعندما لايستطيع تحقيق اهدافه يسقط على الاخرين احكاماً قاسية فهم ((لايستنجون من غائط ولابول ولا يغتسلون من جنابه ولا غير ذلك ... ولايستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم ، كذلك لاتستر

المرأة شيئاً من بدنها عن احد من الناس)) (41) وابن فضلان في قوله هذا ينطلق من رؤيه عقائدية متمسكة بمبادئ الطهارة والاحتجاب .

ولتعميق خروجهم عن هذه المبادئ يورد هذه القصه :ينزل ضيفا فيَيوم ما على رجل وامراته ، فبينما هي جالسة تحدثه انكشف فرجهاوحكته ، يستر ابن فضلان وجهه مستغفراً ربه ، الامر الذي يثيرضحك الزوج ، فيطلب من المترجم ان يخبر ابن فضلان وجماعته بالحكمه من وراء ذلك ، بأن يقول لهم : (تكشفه بحضرتكم فترونه

وتصونه فلا يصل اليه احد خير من ان تغطيه وتمكن منه) .(42)

تكشف هذه القصه طبيعه العالم التركي الذي لم تصله ثقافه الاحتجاب ، ابن فضلان والمرأة التركية يمثلان عالمين مختلفين عقائديا . والملاحظ ان ابن فضلان ينظر اليه على انه عربي لا على انه مسلم . يسأله احد الاتراك بوساطه الترجمان سؤالاً محيراًفيه عدة طعون متواليه ضده وضد الله ، فيستعظم السؤال ويطلب

المغفرة ، قل لهذا العربي : ألربنا عز وجل امرأة ، والمؤكد ان وصف الله بالعزة والجلال من كلام ابن فضلان .لان الاتراك

لو عرفوا الاطارالعام لصفات الله تعالى لما تقدم احد بسؤاله .(43)

اما عند قبيله (الباشغرد*) فيلاحظ ماهو اكثر خروجاً على الدين الذي يؤمن به ابن فضلان ، فكل واحد منهم ينحت خشبه على قدر الاحليل ويعلقها في داره ، فأذا اراد سفراً او حرباً قبلها وسجد لها وقال : (يارب افعل بي كذا وكذا) ، وجواب احدهم عن ذلك ((لاني خرجت من مثله فلست اعرف لنفسي خالقاً غيره)) ، وبعضهم يربان له اثني عشر رباً ؛ للشتاء ربُ ، وللصيف ربُ وللريح ربُ ، وللشجر ربُ وبعضهم يعبد الحياة والثعابين ، وبعضهم يعبد الاسماك.وبمواجهة هذه المعتقدات والديانات ليس لابن فضلان سوى ان يقول :(تعالى الله عما يقول الظالمون).(45)

يجد ابن فضلان نفسه في عالم مختلف وأستأثر بأهتمامه العادات الاجتماعية والمعتقدات الدينية المختلفة ، وسرعان ما يكتشف انه عالم هش يخترق بالهدايه والرشاوى والخوف . هو عالم متعاهد مع الاسلاملكنه شبه جاهل . (46) وينبثق شك في امر هذه البعثة فيحتجزون اعتقادا بانهم عيون لملك الخزر تمهيدا للهجوم عليهم ، فيقترح بعضهم تقطيعهم ويقترح الاخر سلبهم وتعريتهم وطردهم ، ويقترح اخر بان يقادوا اسارى الى بلاد

*قبيلة تركية

الخزر .(47) وكان لانقسام هذه الاراء وتعارضها سبب في ان لايتخذ بشأنهم قرارا نهائيا. فيبقون شبه هاربين. هذا الموقف الذي كاد ان يؤدي بهم الى التهلكة جعل ابن فضلان يكف عن توسيع ملاحظاته وفضوله، فيقف مذعوراً ليعود الى نسق الوصف السريع الخاطف بلا تفصيل : (رحلنا ثم وصلنا نهر يغندي، ثم عبرنا جام ،ثم نهر جاخش....) فيعدد الانهار كما يعدد المدن(48)

لقد فقدابن فضلان ارادته وحب استطلاعه للدياروالمجتمعات ليدخرهاالى وقت اخر حينما يستوطن (الباشغرد) فيصفهم بأنهم ((شر الاتراك واقذرهم ، واشدهم اقداماً على القتل ، يلقى الرجل الرجل فيفصل هامته ويتركه ، وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل)) (49) يضيق ذرعاًبالتركفيحث الخطى سريعاً ويعبر الانهار على عجل ليصل الى بلاد الصقالبة على شاطئ نهر الفولغا ، حيث الهدف الاخير لبعثته . (50)

بلاد الصقالبه*:

لايُعرف كيف اخترق ابن فضلان بلاد الخزر التي تفصل بلاد الترك عن بلاد الصقالبة ، وماموجود عن بلاد الخزر ليست من اصل النص انما منتزعه من (معجم البلدان) لياقوت الحموي ، وهي لاتدل على انه دخل بلاد الخزر ، وترد في تضاعيفه معلومات كانت شائعة

قبل القرن الرابع ،كالذي اورده الاصطخري مثلا .(51) على اية حال وصل ابن فضلان معثلاثه من جماعته (تكين وبارس و سوسن) وطوال وجودهم لايظهر (نذير الحرمي) ولا (عبد الله بن باشتو) . وتكون مهمة ابن فضلان قراءه كتاب الخليفة وكتاب الوزير وكتاب السفير (نذير الحرمي) .(52)

يستقبل ابن فضلان بأحتفاء يوم الاحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من محرم سنه عشر وثلاثمئه ، (53) ويحرص على مراعاة مراسيم الاحتفال فيجلل دابته بالسواد (رمز العباسيين) ، ويطلب من الملك الوقوف في اثناء قراءة الرسالة ، ثم يبدأ بتصحيح الممارسات الدينية الخاطئة ، بدءًبملك الصقالبة ، فيكتشف ان الملك ليس خائفاً من القوى العسكريه للخليفه المقتدر ، ولاهو بحاجه الى الاموال لبناء الحصون ضد الخزر ، انما هو
يغشى البعد الديني ، فدعاء واحد عليه قد يهلكه.(54) وقد طلب المال للتبرك لا للحاجة . وبعد ايام من تسليم كتابي الخليفة والوزير ، يواجه بالحقيقة المرة : اين الاموال التي ارسلها الخليفة ؟ يتعرض ابن فضلان لمأزق كبير ، ويعترف لملك الصقالبة ان المقتدر امرهم بجمع عطاء احدى القرى وايصاله الى الملك ،لكنهم لا يفلحون في ذلك بسبب
* سكان نهر الفولغا
الخلافات التي حدثت بينهم في بخارى والجرجانية . (55)

وبإزاء عدم وصول الأموال مع ألبعثة إلى الملك يصبح موقف ابن فضلان صعباً ، والثقة به معدومة ، حتى الأخطاء الدينية التي قام بتصحيحهايأمر الملك (يلطوار) بعدم تنفيذها (56) ، ويرفض وعظ ابن فضلان ورفاقة وتسقط الهيبة عنهم ولاتسمع أعذارهم، ولا يعبأ الملك بهم . لهذا ينصرف ابن فضلان الى استكشاف التركيب الداخلي لعالم الصقالبة وطقوسهم الدينيةوعاداتهم الاجتماعية ، واهم مايلاحظه مقدار تأثير الأساطير الروسية فيارض الصقالبه ولم يدر انه بعد وقت قليل يصبح جزءً من عالم تلك الأساطير الغامضة .(57)

بعد هذا الموقف يتحلل وجود البعثة ولا يُعرف توجههم ، ان المنطقي هو عودتهم الى بغداد وكشف الأمر للخليفة . لكن ماحدث هو ظهور البعثة في البلاد الروسية شمال ارض الصقالبة ليصبحوا تماماً في دار الكفر ، ولكن يحتمل ان يكون ظهور الروس بوصفهم مستوطنين بشكل مؤقت لإغراض التجارة أو غيرها . مما أدى الى التحاق ابن فضلان بالمجموعة الروسية القتالية المتجهة شمالا مع ان هذا يتعارض مع إشارات (كريكتون) التي تنص على عدم إكمال ابن فضلان مهمته في ارض الصقالبه ، (59) فضلاً عن مرور البعثة

بـ (بلغار) عاصمة الصقالبة ، وفيها يحاول ابن فضلان النزول فيها عبثاً متذرعاً بإكمال مهمته ، وذلك كلّه متصل بسوء ترتيب النص وتقطع أجزائه ،
مما يظهر فيه تناقضات لأتخفى . (60)

ابن **الخاتمه:** أرسل الخليفة العباسي المقتدر بعثه الى ملك البلغار يضع في مقدمتتها فضلان بوصفه فقيهاً وحجة في شؤون الدين. وتعد هذه البعثه أول ملامسه لعالم الشمال بما فيه من أتراك وصقالبة وبلغار وخزر واسكندينافيين يواجه فيها ابن فضلان عالماً وثنياً مشبعاً بالضلال ، يحاول فيه تغيير هذه المعتقدات، لكن في النهاية يكتشف أن مهمته مستحيلة، فهو مشبع بأفكاروميادئ عقائدية لاتجد صداها في العالم الشمالي هذا ، فلكل مجتمع عقائده وعاداته وتقاليده ، ولعل من المهمات الصعبة ان تغيّر العقيدة ، لتحل محلها أخرى ، وقد لاحظنا مقدار هذه الصعوبة مع بداية الدعوة الاسلاميه كيف جوبهت بالتحديات مع ملاحظه ان الدعوة انطلقت من العرب واليهم وفي ديارهم . فكيف يكون الحال مع الأخر .

في إثناء هذه البعثه يُسحر ابن فضلان بالقطب الشمالي والحياة الجديدة فيه ، ولا يعرف كيف عاد الى بغداد ، وكيف قوبل تقريره الذي كتبه ، أخر الشهود الموثوقين هو ياقوت الحموي من القرن العاشر الميلادي ، الذي اقرّ بشهرة ابن فضلان وشيوعه بين الناس واقتطف أجزاء منه في معجم البلدان .واختفت ألنسخة الأصل من نص الرحلة وتمزق ، وقد مر على رحلة ابن فضلان ما يزيد على الف سنة ، ولكن صاحبها مازال محط اعجاب الاجيال الكثيرة على مر العصور ، وذلك بعد ان تخطى هو حدود القومية الى افق الانسانية الرحب، فحفظ لشعوب عدة ذخيرة فريدة من ماض ماكان حضور بينهم ، لولا تلك السطور الخالدة التي دونها في عاصمة السلام ، بغداد بعد عودته من رحلته الشاقة تلك،محملا بكنز من حقائق عاشها بين اقوام بعيدة ،خلده على امتداد الزمان .

الهوامش:

(1) المقدسي ، أبو عبد الله بن احمد البشاري ، (ت 381 هـ) أحسن التقاسيم في معرفه الأقاليم ، تحقيق
دي غوية (ليدن) ، ص9 ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، جمع وترجمه وتقديم حيدر محمد غيبه الشركة العالمية للكتاب ، 1994 ، صفحه 34 .الزركني ،خير الدين، الاعلام ،ط4،مط دار الملاين ،بيروت،1979،ج1،ص271.

(2) بار تولد ، تاريخ الترك في أسيا الوسطى ، ترجمه احمد السعيد سليمان ، مراجعه إبراهيم صبري ، مكتبه الانجلو مصريه ، ص65-66 ، ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه
ص 35 . 36 .

(3) المقد سي ، مصدر سابق ، ص9-10 ، ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه
ص9-10 .

(4) زكي محمد حسن ، الرحاله المسلمون في العصور الوسطى ، القاهرة ،1945، ص17 ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص10 .

(5) ياقوت، شهاب الدين ابن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، 1995 ، ج1 ، ص88.

(6) الكاتب ، راشد بن إسحاق ، ديوان أبي حكيمة ، تحقيق محمد حسين الاعرجي ، ألمانيا ، كولونيا ، دار الجمل ، 1997 ، ص25 . 26

(7) ياقوت ، مصدر سابق ، ج1 ، ص88.اغناطيوس يوليانوفيتش، كراتشكوفسكي،تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج1،ص168.وعبد الرحمن حميدة اعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ،دمشق ،1984،ص244.

(8) ياقوت ، مصدر سابق ، ج1 ، ص484 .

(9) ابن النديم، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ص363

(10) كيليطو ، عبد الفتاح ، لسان ادم ، ترجمه عبد الكبير الشرقاوي ، الدار البيضاء ، دار توبقال ، 1995
ص79

(11) رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص23

(12) ابن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، 1959 ،ص52-55 ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص30-7

(13) برناردو ليس : اكتشاف المسلمين لأوربا ، ترجمه ماهر عبد القادر ، ص71-73

(14) برناردو ليس، المصدر نفسه ، ص 74. اندريه ميكيل، جغرافية دار الاسلام البشرية، ترجمة براهيم الخوري ، وزارة الثقافة دمشق ، 1985،ج2، ص93.

(15) برناردو ليس ، المصدر نفسه ، ص75

(16) برناردو ليس، المصدر نفسه ، ص85

(17) رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص73

(18) برناردو ليس ، المصدر نفسه ، ص73.74

(19) الاصطخري ، أبو إسحاق ، مسالك الممالك ، ليدن ، يريل ،1927 ، ص9.نقولا زيادة ، الجغرافيا والرحلات عند العرب ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، 1962،ص142.

(20) موريس لومبار ، الإسلام في مجده الأول ، ترجمه إسماعيل العربي ، دار الأفاق الجديدة ، المغرب، 1990 ،ص47

(21) النرشخي ، أبو بكر محمد بن جعفر (ت384هـ) ، تاريخ بخارى ، عربه عن الفارسية وحققه الدكتور أمين عبد المجيد بدوي ، نصر الله مبشر الطرازي ، دار المعارف ، مصر ، ص52. 53 ، رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ص41

(22) ابن بطوطة ، رحله ابن بطوطة (المسماة تحفه النظار في غرائب الأمصار ، شرح طلال حرب ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 ، ص375

(23) رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص43

(24) رسالة ابن فضلان، مصدر سابق ، ص376

(25) رسالة ابن فضلان، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص45

(26) رسالة ابن فضلان، المصدر نفسه ،ص47

(27) رسالة ابن فضلان، المصدر نفسه ،ص48

(28) رسالة ابن فضلان، المصدر نفسه ،ص56

(29) رسالة ابن فضلان، المصدر نفسه ،ص56. صفير البشير ، الجغرافيا عند العرب نشاتها وتطورها، دار الغرب الاسلامي ،بيروت 1984، ص42. 43.

(30) الاصطخري ، مصدر سابق ، ص217 . 227

(31) رسالة ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص59، مجله الأبحاث ، ألجامعه الامريكيه ، بيروت 1967 ، ج4 ، ص374 . 375

(32) رسالة ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ،ص118. 129

(33) رسالة ابن فضلان ، المصدر نفسه ،ص119. 120

(34) دائـرة المعـارف الاسلامـيه ، مجموعـه المستشـرقين ، (بالفرنسـية ، ليـدن ، 1913 ، ص106 ، ص120 ، 170 ، مجله المجمع العلمي العراقي ، مطبعه المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث عشر ، 1966 ، ص2422.

(35) يـاقوت ، مصـدر سـابق ، ج1 ، ص88، دائـرة المعـارف الاسلامـيه ، دار الشـعب ، القاهرة ، ج1 ،ص364.

(36) رسالة ابن فضلان ،تحقيق سامي الدهان ، ص 119 ،ص120 ، بارتولد تأريخ الترك ،ص195 .

(37) ياقوت ،مصدر سابق ،ص485 ،شكري فيصل ،حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول يشير الى جب ، ص311 مجلد 35 ،1945 ،

Mey-dam Larouses 121351, Muslem World

(38) بور ،حسين أحمدي ، فتوحات اعراب در آسيا مركزي ،تبريز ،1923 ،ص 27 .

(39) رسالة ابن فضلان ،تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص 45 .مجلة ايران . المجلد 19 ، 1981 ،ص62

(40)رساله ابن فضـلان ، تحقيـق سامي الدهان ، ص120 ، برنـارد لويس ، مصـدر سابق ، ص86.

(41) بارتولد ، مصدر سابق ، مقاله حول ابن فضلان ، ص103.104. بور ، فتوحات اعراب در اسيا مركزي ، ص42

(42) موريوس ، لومبار ، الاسلام في مجده الاول ، ص47.48

(43) رساله ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غيبه ، ص52 ،بارتولد ، مصدر سابق ، ص105

(44) دائـرة المعـارف الاسـلاميه ، ص172 ، رسـاله ابـن فضـلان ، تحقيـق سـامي الـدهان ، ص130

(45) رسـاله ابـن فضـلان ، تحقيـق حيـدر محمد غيبـه ، ص52، دائـرة المعـارف الاسـلاميه ، ص364

(46) يـاقوت ، مصـدر سـابق ، ج1 ،ص90، رسـاله ابـن فضـلان ، تحقيـق سـامي الـدهان ، ص109.110

(47) مجله المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثالث عشر ، ص22 .24

(48) رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص110 . 111 ، بور، فتوحات اعراب در اسيا مركزي ،ص 30

(49) رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص 110 .111 ، النرشخي تاريخ بخارى ، ص57

(50) الحديثي ، قحطان ، ارباع خراسان ، وماوراء النهر، مطبعة دار الحكمة ، البصرة ص72 ، شعبان ، محمد عبد الحي ، الثورة العباسيه ، ترجمه عبد المجيد القيسي ، دار الدراسات الخليجيه ، ابوظبي ،1977 ص53 ، رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص112

(51) ياقوت ، مصدر سابق ، ج1 ، ص485، رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص118.117

(52) الهروي ، سيف الدين ، تاريخ نام هراة ، كالكتا ، 1943 ، ص21ـ22 ، رساله ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غنيمه ، ص51

(53) مستوى قزوين ، تاريخ كزيده ، مطبعه الفردوس 1336 هـ ، ص82، بور ، حسين احمدي ، فتوحات اعراب در اسيا مركزي ، ص53

(54) رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص133 ، الحديثي ، ارباع خراسان ، ماوراء النهر ، ص75

(55) رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، ص133 ، الحديثي ، ارباع خراسان ، ماوراء النهر ص76

(56) شمس الدين ، سامي ، القاموس التركي الكبير والموسوعه مطبعه ميدان ،اسطنبول ، 1972 ، ص19، ابن فضلان ، رساله ابن فضلان ، تحقيق حيدر محمد غنيمه ،ص52

(57) النرشخي ، تاريخ بخارى ، ص82 ، برنارد لويس ، اكتشاف المسلمين لاوربا ص95

(58) رساله ابن فضلان ، تحقيق سامي الدهان، ص145 ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج1 ،ص364

(59) دائرة المعارف الاسلاميه ، ج1 ، ص367 ، ياقوت ، مصدر سابق ، ج1 ، ص365

(60) الموسوعه الاسلاميه ، مطبعه التعليم الوطنيه ، اسطنبول ، 1977 ، ص105 ، الاصطخري ، مصدر سابق ص231.230